

## الفصل الرابع

### الصراعات والزعamas والآوجات في الوطن العربي خلال القرن السابع عشر

التحولات والمواصفات وما سي المجتمع العربي:-

تعلمنا مما سبق: كيف غدت الاراضي العربية واقعة في اطار الهيمنة العثمانية أو متحالفة معها، أو مستقلة عنها ومنذ النصف الأول من القرن السادس عشر. وتکاد تكون جميع المناطق متجانسة في مسأليتين مهمتين في عملية التوسيع العثماني، هما:

الاكتساب العثماني، أي؛ السيطرة وفرض الهيمنة بالقوة والامتداد العسكري.

التتابع العثماني، أي: سقوط اجزاء واسعة نتيجة لاكتساب المركز فيتوالي امر السيطرة تباعاً، كما حدث في العديد من الأطراف العربية.

هكذا نعلم ان القرن السادس عشر يعد عصر تحول في المصير التاريخي / العربي باتجاه الحكم العثماني و «العثمانة» في القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية اثر سيادة دامت قرابة اربعة قرون... في حين القرن السادس عشر عصر تحولات بالنسبة لاوروبا ايضاً، ولكنها تحولات من نوع آخر، وانطلقت في طريق آخر كرسته للإصلاح الديني والنهضة والاستكشافات والتفكير الفلسفية واللاهوتي... أذن، فالفارق في تحولات كل من العرب واوروبا كان كبيراً وبعيداً جداً... فارق بين التحجر والانطلاق، بين التحرك والسكنonia، بين التبعية والابداع... وفعلاً فقد تركبت حقبات تاريخية - سكونية ليس في الحياة العربية فحسب، وإنما في حياة العالم الاسلامي قاطبة.

وعليه، فاذا كنا قد اعتدنا النصف الاول من القرن السادس عشر هو عصر للتوسيع العثماني وفرض الهيمنة العسكرية، فان النصف الثاني منه هو عصر للتأسيس العثماني وفرض القوانين واجراء التطبيقات في مختلف حقول الحياة، اي بمعنى: بناء اعراف وقوانين ونظم اقتصادية واجتماعية ستبقى سارية المفعول منذ ذلك الحين حتى مطلع القرن العشرين. ان عصر التأسيس والتطبيقات سيكفل لـ«العثمانة» ان تأخذ مديات واسعة لها. وتشكل شبـه قطـيعة بين ما أـلـهـيـةـ المجتمع العربي قبل القرن السادس عشر وما أـلـهـيـةـ في الفترات العثمانية.

نلاحظ ايضا ان مفاهيم وافكاراً وتقاليد واعرافاً متعددة قد ترسخت ليس في اذهان الافراد فحسب، وانما عند الجماعات والوحدات الاجتماعية والثقل السكاني في المدن وال惑اـضـرـ، وسيخرج المجتمع بطبيعة تركيبه في حياته الاجتماعية التي تعكسها ايضا ظروفه الاقتصادية، وستتبـلـورـ بوجه خاص خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حـيـاةـ عـثـمـانـيـةـ / اجتماعية جديدة ليس فيها فاعليتها وحركتها، وانما لها تقسيمها الطبقي، وسوف يسود ذلك النمط معظم الولايات والاقاليم العربية حتى القرن التاسع عشر.. فماذا سنجد في القرن السابع عشر بعد فحص تكويناته التاريخية؟

في غمرة الهيمنة العثمانية، يعد عهد سليمان القانوني مكملاً في مشروعه لعهد سليم الأول، في حين ان عهد سليم الثاني ١٥٦٦-١٥٧٤م وعهد مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م، وعهد محمد الثالث ١٥٩٥-١٦٠٣م فترة تاريخية تكميلية لعهد القانوني، عاشت على بقايا وآثار مازرعه القانوني من نظم وقوانين في الدولة، وما كفله من اعراف وتقاليد في المجتمع. فالاقتصاديات الجديدة بدأت تترسخ ادواتها ووسائلها في حلقات المجتمع يوماً بعد آخر، وتأقلمت ظروف الدولة والادارة والاقطاعيات مع واقع جديد تميـزـتـ عنـ التطـبـيقـاتـ العـثـمـانـيـةـ.

اذن، فالقرن السادس عشر هو مصدر تاريخي في تكوين آليات ومنتجات القرن السابع عشر الذي ضعفت فيه خلال الانتجـاحـةـ الزـارـاعـيـةـ والـحـرـفـيـةـ فأثرت على حالة السكان وعلى انتشارهم، وضعفـتـ اسـوـاقـهـمـ وـتـجـارـاتـهمـ، وانهارت بعض مدنـهمـ وـانـدـثـرـ بـعـضـهـاـ، وـسـاءـتـ الـاوـضـاعـ الصـحـيـةـ وـالـثـقـافـيـةـ، وـضـعـفـتـ حـرـكـةـ السـفـرـ

والهجرة والقوافل... الخ بسبب تزايد النكبات والكوارث من فيضانات وأوبئة وطواعين ومجاعات وحروب وظروف ابادة، ناهيك عن الصراعات والنزاعات القبلية وال محلية والإقليمية... الخ.

اننا لو احصينا مجموعة الاحداث التراكمية التي عاش عليها المجتمع العربي خلال القرن السابع عشر فسنجد ان جميعها احداث جماعية سلبية تتصل بحالات من القهر الجماعي وقسوة الادارة وسوء التطبيق والقوانين والاوامر... ويمكننا ان نتوقف قليلاً لتحليل بعض العلل والمعلومات:

١ السياسة الجائرة التي اتبعت في الولايات والاقاليم العربية من قبل الولاة او الصنائق والحكام الاقليميين، وانها سياسة ارتبطت مركزيًا بالباب العالي الذي شهد ضعفًا في مكانته خلال القرن المذكور، ووصل الضعف الى السلاطين انفسهم، ولم يبرز منهم سوى السلطان مراد الرابع ١٦٤٠ م الذي اتبع سياسة فعالة لوحده.

٢ سوء تطبيق لنظام الالتزام على امتداد القرن السابع عشر، فسبب ذلك خللاً شبيهًا في اقتصاديات المشرق العربي، والحق التفكك ببيئاته الجغرافية واقطاعياته التي مارس فيها الملزمون أسوء الممارسات، كما مورست في مصر أسوء أساليب الادارة التي انتشرت فيها الرشوة والطلبة والاحتكارات والمضاربات... اما في بلاد الشام فقد ساءت اوضاع السوق والحركة التجارية نتيجة لتفاقم خطر الصراعات المحلية والنزاعات الإقليمية على يد الزعامات العسكرية ... الخ

٣ المشكلات التي خلقتها الفئات العسكرية - العثمانية كالانكشارية مثلاً الذين وطنتهم الدولة في العديد من المدن والحواضر العربية الكبيرة، فكانوا مثاراً للقلق والانقسام والنزاعات المحلية كتلك التي شهدتها حلب وديار بكر وبغداد والموصل والجزائر (التي ظهرت فيها فئة جديدة من السكان تدعى بـ «الكراغلة» والمنحدرة من أباء انكشاريين وامهات جزائريات).

٤- غلبة الصراعات الخارجية والتهديدات ضد الدولة العثمانية وممتلكاتها سواء من خلال البر أو البحر، وسواء كان ذلك في الشمال الأفريقي أم الغرب الآسيوي، فقد تعرضت كل من إياضي تونس والجزائر إلى تهديدات القرصنة الأوروبية ولا سيما المناطق الساحلية، في حين تعرض العراق بولاياته الثلاث إلى هجمات بحرية من قبل إيران الصفوية وبقي العراق محتلاً للفترة ١٦٢٣-١٦٣٨.

٥- سلسلة الكوارث المأساوية في كثير من البيئات والإقليم العربي، فانعدام سقوط الأمطار أو مهاجمة الجراد النجدي للزرع، سيؤديان إلى انعدام الانتاج، فترتفع أسعار المواد الغذائية، فتببدأ الموجة، وكلما شحت المواد وانعدمت تساقط البشر من شدة الجوع بالملائكة مما يقود إلى انتشار الوباء والطاعين الذي يفتك بالمدن خصوصاً فتكاً شديداً.

٦- هجرة ونزوح الآلاف من المشردين والهاربين والنازحين من الاناضول والإمارات المجاورة نتيجة لظروف سياسية أو حربية أو اقتصادية خلق فئات جديدة في المجتمع كما حدث عند فئات «الصيّبان» الذين استخدمتهم الزعamas العسكرية جيوشاً مرتزقة\*.

## ١- العراق : بغداد — والصراع ضد إيران:-

لقد ضعف النظام الإداري - العثماني في العراق بسبب ضعف قدرات الولاة وقصر فترات عهودهم، وكان معظمهم من «المماليك» خريجي مدرسة القصر السلطاني في العاصمة اسطنبول . واعتمد الولاة خلال العقود الأولى من حكم السيطرة العثمانية على الجيش بتركيبته الانكشارية والسباهية، وللمشكلات

\* من أجل التوسيع في المعلومات التاريخية عن الأحداث التي عاشها المجتمع العربي خلال القرن السابع عشر، أحيى القاريء إلى المصادر القديمة التي كتبها كل من :

-- محمد أمين بن فضل الله المحببي في كتابه الكبير «خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادى عشر» (٤ أجزاء) القاهرة، ١٨٦٨ م.

- محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، «كشف الكربة في رفع الطلبة»، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، ١٩٧٦.

- ياسين الخطيب العمري، الدر المكنون في المأثر الماضية من القرون» ، (٢ أجزاء)، تحقيق د. سيار جميل، اسكتلندا، ١٩٨٣.

المعقدة والمتنوعة والكثيرة، وبضمنها التمردات، واستشارة الفوضى الداخلية للقوات العسكرية العثمانية، لجأ الولاة الى تشكيل قوات محلية لاجهزتهم الادارية\* ... وكثيراً ما حدث صدامات مسلحة بين القوات العثمانية / الانكشارية والقوات البغدادية / المحلية.

وهكذا، استبد الانكشارية بالحكم في بغداد مرتين، وذلك لأنهم كانوا أقوى من بقية القوات والتشكيلات الأخرى:

١. الحركة الأولى في عام ١٦٠٣ - ١٦٠٤ م: ظهر القائد الانكشاري محمد بلوك باش بن احمد الطويل بعد ان ورث منصبه عن أبيه. وفي عام ١٦٠٥ م، قاد انقلابه مسيطراً على بغداد ، وعيثا حاولت القوات التي ارسلها السلطان احمد الأول ١٦٠٣ - ١٦١٧ م، بقيادة نصوح باشا والي ديyar بكر ان تفعل شيئاً اذا انهزم - من بعد - بسبب خيانة الجندي المرتزقة . واستتب الامر لابن الطويل، ولكنه اغتيل فجأة في عام ١٦٠٧ م من قبل كاتب ديوانه، ونصب اخاه مصطفى بك مكانه . وعملت الحكومة العثمانية على القضاء على الانقلابيين، اذ ارسل محمد باشا ابن سنان باشا بغية اقصاء مصطفى، وتوليه باشوية بغداد، وبلغ الموصل، فدخل في مفاوضات سرية مع سحب القوات العسكرية في بغداد التي كانت واسطة لحل النزاع القائم في حكومة بغداد الانقلابية التي تنازلت لمحمود باشا عن السلطة، فنجح في مساعيه ونصب والياً على بغداد، وقام بدور تنصيب ابن الطويل والياً على الحلة عام ١٦٠٨ م، ولكن هذا الاخير فر بعد ذلك الى ايران.

٢- الحركة الثانية: التي كانت اكثر اهمية وخطورة، تلك «الحركة» التي قادها بكر الصوباشي احد ضباط الانكشارية في بغداد (والصوباشي معناه: رئيس الشرط). وكان قد تنفذ في بغداد كثيراً مكتسباً له العشرات من الاتباع في الخفاء، وبدأ نفوذه في الازدياد حتى غداً الرجل القوي لبغداد منذ عام ١٦١٩ م بحيث أصبح الوالي يخشى سلطاته، وحدث الوضع بالوالي يوسف باشا بترقب

---

\* تفاصيل عن الحياة الادارية، انظر : د. خليل علي مراد، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٦٣٨ - ١٧٥٠. (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الآداب - جامعة بغداد ، ١٩٧٥.

الفرصة المؤاتية للايقاع بالصوباشي ... وقد حاول ارساله على رأس قوات لتأديب بعض القبائل ونصب ابنه محمدًا مقامه.

واستعد يوسف باشا للقتال، ولكن بكر الصوباشي كان قد علم، فرجع محاصراً ببغداد، ودارت رحى معركة دامت بضع ساعات سقط خلالها يوسف باشا صریعاً، فأصبح بكر الصوباشي حاكماً عسكرياً مستقلاً لبغداد... ثم بدأ يفكر بالحصول على اعتراف بحكمه لولاية بغداد من الحكومة العثمانية، فأرسل إلى والي ديار بكر حافظ احمد باشا يطلب منه ان يعرض هذا الامر على السلطان مراد الرابع ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م فرفض السلطان ذلك الامر رفضاً باتاً، وذلك لأهمية بغداد الاستراتيجية في التفكير السياسي - العثماني، فنصب سليمان باشا واليًّا على بغداد.

تلقي الوزير حافظ احمد باشا أمر السلطان بالزحف على بغداد، والاطاحة بالصوباشي وقمع تمرده، وكان ذلك الامر السلطاني - كما يبدو - قد جاء خوفاً من انحياز الصوباشي نحو ايران وتسليميه بغداد الى الشاه عباس الصفوي معاندة، فاتهم حافظ احمد باشا بعمالة الصوباشي. وعندما علم بتهمته توجه بقواته لقتال بكر الصوباشي، وقد حدث ذلك الذي خشي منه حافظ احمد باشا، اذ طلب الصوباشي المساعدة من الشاه الصوفي عباس الأول ١٥٨٧ - ١٦٢٩ م موضحاً انه اذا خلصه الشاه الايراني من العثمانيين فانه يسلمه بغداد، فوجد عباس الأول (وهو من ابرز الشاهات الايرانيين الصفوين) بأن الفرصة مؤاتية لاعادة السيطرة على العراق واحتلال مدنه، فأرسل بقواته.

نتيجة لذلك فقد رفع حافظ احمد باشا الحصار عن بغداد، وعقد صلحًا مع بكر ونصبه واليًّا عثمانيًّا على بغداد بمقتضى فرمان سلطاني «وعلم حافظ احمد باشا الا طاقة له بالشاه، فصالح بكر الصوباشي وخلع عليه خلعة الوزارة وولاه بغداد ورحل حافظ احمد باشا الى ديار بكر فنزل الشاه عباس على بغداد، وأرسل يطلب الوعد، فكتب له بكر: قد تصالحت مع السلطان ووليت بغداد فارجع، فغضب الشاه عباس وحاصر بغداد حتى أكل اهلها لحوم الأدميين. وكان بالقلعة محافظاً محمد بن بكر الصوباشي، فخان اباه، واتبع هواه وأرسل الى الشاه، واستوثق لنفسه

بالأمان، وفتح له باب القلعة ليلاً، ودخل عسكر الشاه اثنين اثنين إلى أن امتلأت القلعة وعند الصباح ضربت طبول الشاه بالقلعة ودخل بغداد الشاه عباس ووضع السيف وقتل بكرأ وأخاه والقاضي والنائب، ومن أهل بغداد أكثر من اربعين ألف نسمة ثم نادى بالأمان وارسل الشاه عباس أحد قواه قاسم خان فملك كركوك، ثم ملك الموصل وعاد إلى بغداد» - كما هي رواية المؤرخ ياسين الخطيب العمري\* .

هكذا انتهى حكم العثمانيين في العراق بعد قرابة تسعين سنة من سيطرة السلطان سليمان القانوني على بغداد عام ١٥٣٤، وهكذا وقع تحت وطأة الاحتلال الفارسي إذ اجتاز الشاه عباس الصفوي على رأس جيوشة عبر الحدود ليحتل بغداد سنة ١٦٢٣م بعد التمرد الذي قاده بكر الصوباشي على العثمانيين، وبعد الاحداث المأساوية التي حدثت ببغداد. لقد انبعث الفرس على رقعة العراق، إذ سيطروا على كركوك التي استسلمت دون مقاومة، وحوصرت الموصل طويلاً، ولم تستسلم للفرس الا بعد وصول تعزيزات عسكرية فارسية مارست ضدها حرباً اقتصادية شعواء اضطرت بعد ذلك للتسلیم ، فقتل المئات من أهاليها واعدم وليها التركي. واستمرت السيطرة الفارسية - الصفوية على الموصل ثلاثة اعوام فقط، اذا استردتها العثمانيون عام ١٦٢٦م دون مقاومة، في حين استمرت السيطرة الفارسية على بغداد حتى عام ١٦٣٨م.

لقد احتل الشاه عباس الأول العراق عام ١٦٢٣م، فقام العثمانيون بمحاولات متكررة لاعادة السيطرة العثمانية عليه، وباءت محاولات الوزير حافظ احمد باشا بالفشل وكان قد اصبح صدرأً اعظم للدولة في سنة ١٦٢٥م، وبعد وفاة الشاه عباس الأول، قام خسرو باشا الصدر الاعظم بحملة اخرى عام ١٦٢٩م، وقد فشلت وانسحبت القوات العثمانية نحو الموصل. وبقيت سيطرة الفرس الثانية على بغداد حتى سنة ١٦٣٨م عندما تجرد السلطان مراد الرابع ١٦٤٠-١٦٢٣م لاستردادها ثانية، وبعد حصاره الشديد لها لمدة اربعين يوماً... فجر اسوارها، ودخلها عنوة وأنهى الحكم الصفوي فيها، ثم نظم ادارتها، وعين الوزراء عليها ثم

---

\* ياسين الخطيب العمري، الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، تحقيق د. سيار الجميل، اسكتلندا، ١٩٨٣ج، ٢، ص ١٦٤-١٦٣.

رجع الى عاصمته وعد استرداده لبغداد عملاً استراتيجياً، وحدثاً خطيراً في موازين تاريخ القرن السابع عشر<sup>\*</sup>.

ادا ما قارنا بين الحملات الثلاث لتخليص بغداد وجدنا ان الحملتين العثمانيتين الاوليين قد فشلتا لاسباب تتعلق بالقيادة اولاً، وبانعكاس مساوى التخطيط للباب العالي ثانياً، فقد كانت اسطنبول تعيش فوضى سياسية، واضطربات داخلية استطاع ان يحسّها السلطان مراد الرابع الذي أعاد للدولة حيويتها... وقبل وفاته، بسنة استطاع ان يعيّد بغداد وال العراق الى حكم الدولة العثمانية ثانية، ويلقب بعد ذلك بلقب «فاتح بغداد».

جاء في مخطوط «الدر المكنون في المأثر الماضية من القرون»: «ونزل السلطان - مراد الرابع - شرقي الموصل في صحراء قرية يارمة، ثم توجه السلطان مراد، ونزل على بغداد فحاصرها اربعين يوماً، وأمر بحفر لغم وحشوه باروداً، واطلقوا فيه النار، فانهدم جانب عظيم من سور بغداد وهجم العساكر على بغداد والسلطان في اثرهم، ووضعوا السيف بالاعجام حتى قتلوا منهم نحو عشرين الف علّج من العجم واسرت جماعة من الخانات، ثم امر السلطان برفع السيف ونادي بالامان وكان هذا الفتح ثامن رجب<sup>\*\*</sup>، ثم امر السلطان مراد بتعمير سور بغداد والقلعة وشحذها بالعدد وعين لحافظتها وزراء وامراء وعساكر وامر بعمارة المراقد، وعاد السلطان الى اسلامبول (= اسطنبول)<sup>\*\*\*</sup>.

لقد تحقق الحلم العثماني باسترداد بغداد على ايدي مراد الرابع الذي يعد آخر السلاطين العثمانيين من الغزا الفاتحين، وقد عقدت بين طرفي الصراع، اي بين السلطان مراد الرابع والشاه عباس الأول، معاهدة زهاب عام ١٦٣٩ م، لتحديد

\* التفاصيل في : علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٢٨ - ١٧٥٠ م . دراسة في احواله السياسية ط ١، نينوى ١٩٨٤ / ١٩٨٥، ص ٤١ - ٨٢ (في الاصل رسالة ماجستير / جامعة بغداد).

\*\* يقابل شهر كانون الاول / ديسمبر من عام ١٦٣٨ م.

\*\*\* نقاً عن حوليات ياسين الخطيب العمري، الدر المكنون في المأثر الماضية من القرون، تحقيق: د. سيار الجميل، ج ٢، ص ١٦٤.

الحدود السياسية بين الطرفين في العراق، وعُدّت هذه المعاهدة جذراً تاريخياً للمعاهدات العثمانية - الفارسية التي عقدت فيما بعد، وقد وقعت «المعاهدة» بعد مفاوضات مطولة بين الدولتين، وتوقف الصراع العثماني - الإيرلندي لفترة من الزمن اثر توقيع معاهدة زهاب في ١٧ مايس ١٦٣٩م، اذ اعقبها فترة هدوء نسبي، وقد نصت المعاهدة المذكورة على بنود مهمة، منها:

- ١- ان تكون بدرة وجصان ومندلي ودرتنك والسهول الواقعة بين تلك المدن ومجموعة العشائر المتنوعة التي تقطن تلك المنطقة تابعة للدولة العثمانية.
- ٢- يعد المر الاستراتيجي المؤدي الى شهرزور حدًّا جغرافياً فاصلًا بين الدولتين .
- ٣- تعد بغداد مدينة عثمانية .

لقد عاشت ولاية بغداد بعد ذلك فترة فوضى خلال «حكم الولاية الاتراك» للفترة ١٦٣٨ - ١٧٠٤م، حيث تعاقب على حكمها اكثراً من تسعة وثلاثين وأيام لم يترك كل واحد منهم عند عزله اثراً يذكر بسبب عدم بقاءهم في مناصبهم مدة طويلة من الزمن». فضلاً عن ان العثمانيين بقوا يتبعون سياستهم التقليدية، وينتهجون الاساليب القديمة في التعامل بين مركز السلطة والولايات العراقية التابعة بتبعة مركزية، فبقيت جميع الاجهزة البيروقراطية القديمة سائدة تعمل ببطء كبير، بل وأصاب الفساد كثيراً من المرافق الادارية.. فضلاً عن تدهور القوة العسكرية العثمانية- الانكشارية. وأصبحت البنية الاقطاعية في الصميم، كما حدث تماماً في بلاد الشام الذي اصابه الانحلال العام، مؤثراً بدوره على طبيعة المجتمع وضعف تراكيبه نتيجة لظهور الانقسامات الحادة، والتي آلت الى صراعات مكشوفة في اغلب الولايات العربية.

واعتمد الولاية على قواتهم المحلية التي لم تستطع بدورها فرض السيادة الاقليمية العثمانية على جهات عدة من الولايات العراقية ولواحق المدن ودساكرها. ان كثرة الولاية الذين تعاقبوا على حكم ولاية بغداد قد أثر كثيراً على حالة تطبيق النظم والقوانين، وكثيراً ما وجد الجهاز الاداري نفسه في محنّة ومشكلات لا

تحصى نتيجة لانتفاضات الجندي على الولاة، وصدامات الانكشارية بالقوات المحلية.

لقد ازدادت الفوضى في بغداد خلال السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر، وتفاقمت قوة رؤساء العشائر العربية في العراق.. وكانت بغداد بحاجة إلى والي قوي يرتب شؤونها ويقوم بضعفها، وينقذ العراق من الفوضى والانحلال.. حتى أتيح لحكم بغداد مجيء حسن باشا في عام ١٧٠٤، لكي تبدأ صفحة تاريخية جديدة من تاريخ العراق الحديث خلال القرن الثامن عشر\*.

## ٢- الموصل — الاستراتيجية والروابط الاقتصادية.-

اما الموصل فقد دخلت المجال العثماني بعد شهر مايس ١٥١٦ هـ أي عقب معركة قرة غين دده الفاصلة، ولم يطبق فيها النظام الاقطاعي - العسكري إلا بعد تطبيق سليمان القانوني نظام الشرق. وكان موقع الموصل مركزاً وولاية أهمية استراتيجية كبرى من الناحيتين العسكرية والسياسية - الاقتصادية، فقد كان على الموصل ان تمارس ضغوطاً مؤثرة على الامارات الكردية المتناثرة بعصبتيها الاثنية الداخلية والمتأرجحة في ولائها بين الاتراك العثمانيين والفرس الصفويين.

بعد سقوط بغداد بيد الصدّوقيين عام ١٦٢٣م اثر حادثة بكر الصوباشي الغريبة توجّهت حملة فارسية بقيادة قرجي خان الى كركوك، فاستسلمت له دون مقاومة بعد فرار واليها بستان باشا الى ديار بكر لعدم قدرته على الصمود، ثم توجّه قرجي خان الى الموصل، فحاصرها بشدة، إلا ان اهلها صمدوا ضده وقاوموا جيشه الذي اضطر الى طلب امدادات ومساعدة، فأرسل اليه الشاه عباس حملة قطع خطوط المواصلات عنها، فاستسلمت بعد مقاومة شديدة، فوضع الجيش الفارسي السيف في المدينة قتلاً وسلباً، وعاد قرجي خان الى بغداد، وتولى قاسم خان حكم مدينة الموصل بأمر الشاه، وقد تزوج بامرأة من عوائل «السادة» في الموصل.

---

\* من المفيد جداً مراجعة تحليلات لونكريك ورسالة ماجستير حسين محمد القهوati. العراق بين الاحتلالين العثماني الاول والثاني ١٥٣٤-١٦٣٨م، جامعة بغداد، ١٩٧٥ (غير منشورة)

بقيت الموصل تحت الحكم الصفوي مدة ثلاثة اعوام صعبة.. قاطع اهلوها خلالها المحتل الفارسي، وقد افلح العثمانيون في ارسال حملة تحت قيادة جركس حسن باشا بالتعاون مع اهالي الموصل في طرد الفرس وقادتهم وقاسيم خان.. فعادت الموصل اى مجال الحكم العثماني مرة أخرى.. وعاد اليها من كان قد هرب من الحكم الصدوي الى الجبال\*.

وبقيت ا.وصل محطة أساسية في الاستراتيجية العثمانية بازاء حركة الاتصال بين مركز السلطة واقاليم الشرق، واستفحل دورها ابان تزايد حدة الصراع العثماني - الايراني، وكان لها الدور البارز في حملة السلطان مراد الرابع الذي خلص بغداد سنة ١٦٣٨م، وبعد موت «فاتح بغداد»، بدت العلاقات السياسية بين العثمانيين والفرس اقرب الى الالتمام الخافت، والجيرة الدبلوماسية المشوبة بالحذر لمدة طويلة.. اما بالنسبة للعراق، فلقد كان من نتائج السيطرة العثمانية عليه، هو استقطاب الموصل للدور الاقتصادي - العسكري باعتبارها مركز اتصالات العراق بعاصمة الامبراطورية، ونظرًا لمكانتها الرئيسية وعلاقتها باقاليم الاناضول والشام.

ويسجل الشريط التاريخي لعراق القرن السابع عشر ذلك الاطراد في علاقات الموصل ببغداد، برغم الآفات والکوارث الاقتصادية التي حاقت بشمال العراق، في سهوله ومدنه خلال تلك الحقبة.. ثم نكبات الطاعون التي حلّت بالموصل على امتداد القرن المذكور، وخلال السنوات الآتية: ١٦٢٥م / ٤٣٠هـ، ثم عاد الطاعون غازياً سنة ١٦٤٣م / ٥٣٠هـ ثم في سنة ١٦٥٠م / ٦١٠هـ.. وبرغم ذلك كله فقد بقي المركز الاستراتيجي للموصل ثابتاً، بل قامت قاعدته العسكرية - الاقتصادية بدور فعال لحماية بغداد ضد ما يهددها من أخطار ايرانية مستفحة، وخزيناً احتياطياً للمواد الغذائية في اوقات مختلفة، وعلى الاخص مطالبيها من الحبوب وذلك عبر الخط الملاحي النهري لنهر دجلة... فضلاً عن انها محطة الارسال العسكري من بغداد والدولة وبالعكس في تموين العدة والعدد وخصوصاً

---

\* من المهم مراجعة كتب المحليات القديمة للموصل، وخاصة كتابات المؤرخ ياسين الخطيب العمري (الدر المكنون / زبدة الآثار الجلية / منية الادباء / غرائب الاثر...).

المارة بها الى بغداد، او ان يكون التموين من امكانيات ولية الموصل المحلية ذاتها، في مشاركتها بضرب التحرشات الخارجية، او مساعدتها في اطفاء الفتنة الداخلية، وما يحدث في اطرافها من العصيان.. وقد تمثل كل ذلك بعد السنوات التي مرّت بها بغداد الام والاطراف، من غزوات فارسية، او مشكلات ادارية، او انقسامات داخلية، او اخطار قبلية.

اما اوضاع الموصل الداخلية خلال القرن السابع عشر، فلم يختلف حالها عن الاحوال السياسية في بقية ولايات الدولة، إذ سادها عدم الاستقرار، وكثيراً ما كان الولاة يتبدلون سريعاً، وهم من جنسيات متنوعة. وغدت الحالة الاقتصادية كما كانت من قبل سيئة جداً في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وذلك لتزايد الكوارث والنكبات الطبيعية، وحدوث الغلاء، وانتشار المجاعات.

اما اوضاع الاجتماعية فقد سادت الموصل حالة من الانقسام الحاد بين الاسر الموصلية لاسباب مذهبية وسياسية تبرزها المصالح الطبقية في المجتمع المحلي، ولأسباب اقتصادية بحتة تتعلق بقضايا الزراعات والارض والري ونظام الالتزام والاقطاعات\*. وقد ادى ذلك الانقسام الاجتماعي الخطير الى نتائج سيئة، إذ اذكىت الفتنة المحلية والتأثير على حركة السوق، وتدور العلاقات بين السكان.

في اجواء بهذه، كانت الاسرة الجليلية تتحضر للسيطرة على الحكم المحلي وتبدأ صفحة جديدة في حياة العراق الحديث.

### ٣ - البصرة — حكومة افراسياب العربية:

تعتبر مدينة البصرة من المدن العربية الصعبة والمهمة في التاريخ الاقتصادي للعالم، فهي المسيطر استراتيجياً على البر والبحر والنهر، وقد استقطبت مفاتيح الخليج العربي خلال تواریخ متنوعة. وعجزت السلطة العثمانية في نهاية القرن السادس عشر ان تبقى حياة السيطرة عليها اثر ضعف سلطة الولاة عليها، وفشلهم في درء الاخطار التي حاقت بها.

---

\* انظر ما كتبه دومينيكوا لانزا في مذكراته: الموصل في الجيل الثامن عشر حسب مذكرات دومينيكوا لانزا، فصول ترجمها واطلق عليها هذا العنوان، د. روفائيل بيداوي، الموصل، ١٩٥٢.

وكان النفوذ العثماني المركزي المباشر في حالة جزر دائم، ومناخ خاص وفر عوامل عدّة في قيام حكومة محلية في البصرة سُوفٌ تسمى بـ «حكومة آل افراسياب».

دان افراسياب قد تعهد ان لا يقطع اسم السلطان من الخطبة عندما اشتري البصرة بثمانية اكياس نقود رومية، وهجر الحاكم التركي علي باشا، فتسلم افراسياب زمام الامور في البصرة وضواحيها.. وينحدر آل افراسياب الى أصل سلجوقي / تركي، الا انهم مارسوا سياسة عربية محضة في علاقاتهم الخارجية المختلفة، مرسخين صلاتهم بالعثمانيين باعتبارهم حكامًا لهم شبه استقلاليتهم في البصرة ذات الموقع الاستراتيجي الحساس سياسياً تجاه الفرس، واقتصادياً تجاه الهند.. وقد استمدت هذه الاسرة شرعيتها التاريخية المحلية من ابناء المدينة / البصرة وعلى قواتهم العسكرية. وعلى انكفاء الادارة العثمانية في منافسة العرب لها في فرض النفوذ المحلي والسيطرة البرية (البادية).

لقد تشكلت القوات الحربية لحكومة افراسياب البصرية من مجموعات متعددة، كان ابرزها: قوات نظامية وقوات غير نظامية، تمثلت الاولى بالقوات المحلية ١٩٢٥م، وتمثلت الثانية بأفراد من القبائل العربية، ولكنها جماعاً كانت مستقلة تستمد من افراسياب نفسه قراراتها، فاستطاعت حكومتهاقليمية من الاعتماد عليها في فرض الامن واستتاباب الاستقرار، ودعم الاقتصاد الاقليمي، ومواجهة الامتدادات وحالات التوسيع للقوى الخارجية.

كانت حكومة آل افراسياب بمثابة شكل لا مركزي من اشكال الحكومات الاقليمية التي كانت تدين بالولاء شكلياً للامبراطورية العثمانية منذ القرن السابع عشر، فهي انموذج وسيط من نماذج عديدة متشابهة، اي انها كانت حلقة وصل في بناء علاقات اقليمية غير مباشرة بين الاراضي العربية وبين العثمانيين، فقد كانت تجربة المعينين قد سبقتها في لبنان وسوريا وفلسطين منذ القرن السادس عشر... في حين لحقتها تجارب اقليمية اخرى في القرن الثامن عشر سواء أكان ذلك في الموصل او الجزائر او دمشق او بغداد والقاهرة وطرابلس الغرب وغيرها

هكذا، اكتفى العثمانيون بقيام حكومة افراسياب بذكر اسم السلطان في الخطبة، دوماً، ولم يطالبوا البصرة بدفع الجرایات (الضریبیة) السنوية الى

خزينتهم، علماً بأن واردات البصرة كانت كبيرة لا تضاهى خلال القرن المذكور بشهادة أكثر من سائح ومؤرخ كبروديلا وفنشنسو وتافرنبي والكعبي وغيرهم من الذين عاصروا الأحداث، واطلعوا على البصرة آبان عهد حكومتها المستقلة في الاقتصاديات، واتخاذ القرارات ليس عن الاتراك العثمانيين في العاصمة اسطنبول، بل حتى عن ولاة بغداد الأقليميين في وسط العراق، لكن أبقى العثمانيون اتصالاتهم بالبصرة ضمن سياسة خاصة اتبعت تجاه البصرة بعد ان ثبتوها حكومة افراسياب بفرمان مرسى من علي باشا شخصياً في يوم ١٣ مايس / ايار ١٦٢٥م.

لقد غدت البصرة بعد عام ١٦٢٣م، اي بعد الاحتلال الفارسي- الصفوی الثاني لبغداد والموصى، معزولة عن البر والنهر العراقيين، فضلاً عن محاولات تعرضها للهجوم الفارسي لاسباب اقتصادية، ذلك انها اصبحت مركزاً للتجارة البرتغالية، وتحكمها بتجارة القطيف والاحساء وبقية السواحل الخليجية.. العربية.. ولقد كان ذلك سبباً فعالاً في زيادة حجم الروابط بين حكومة افراسياب و الدولة العثمانية التي لم تستطع ان تحمي البصرة مادياً أو عسكرياً او اقتصادياً، بل شكل موقفها تجاه سكان البصرة تشجيعاً متواصلاً على الصمود. وقد أنتجه ذلك دفعه نفسية، وروحًا معنوية للوقوف امام خطر انقسام العراق على يد الايرانيين.

تعد تلك الاحداث التي عاشها العراق خلال النصف الاول من القرن السابع عشر، عاملأً تاريخياً مؤثراً في استمرار حكم آل افراسياب في البصرة، واستمرار اعتراف السلطة العثمانية العليا بهم. وكان آل افراسياب بحاجة الى استناد شرعي لما كان يحيق بهم من مخاطر اقليمية، وما يواجههم من مشكلات اقتصادية، ولا سيما علاقاتهم مع شركة الهند الشرقية وحركاتهم في الخليج العربي، فضلاً عن الروابط والتحالفات التي عقدتها ايران الصفوية مع القوى الاوربية كالانكليز مثلاً، علماً بأنه لم تكن هناك اية علاقات بين آل افراسياب في البصرة والانكليز في الخليج العربي وكانت هناك علاقات سياسية مطردة بين الامارتين: الافراسيابية في البصرة والمشعشعية في عربستان، وكلما تحسنت العلاقات اثرت تأثيراً كبيراً

على السياسة الفارسية التي حاولت التقرب بين الامارتين لضمان حيادهما على الاقل في حالة نشوب اي حرب صفوية- عثمانية، وخاصة في اثناء استعدادات السلطان مراد الرابع في حملة تخلص العراق من السيطرة الفارسية.

ولم تؤثر حملة السلطان مراد الرابع لاعادة السيطرة على بغداد عام ١٦٣٨ م على افراسياب في شيء، بل بقيت العلاقات بينهم وبين الدولة العثمانية جيدة وعلى «دى زمني طويل، ولا سيما بعد ان عقد مراد الرابع الملقب بـ «فاتح بغداد» معاهدة زهاب مع الفرس عام ١٦٣٩، تعهد الشاه الصفوی فيها بعدم التحرش بالاراضی العراقیة. وعدم التعرض للمدن العراقیة والقصبات التابعة لكل من بغداد والبصرة. ويشير بعض المؤرخین الى ان معاهدة زهاب تعد من اقوى المعاهدات التي ضمنت للعراق فترة هدوء نسبیة خلال القرن السابع عشر\*.

لقد خسمت الاوضاع التاريخیة، فيما بعد معاهدة زهاب، حالة قوة لعلی باشا افراسیاب الذي بدأ يمتد متوسعاً في اراضی المنتفك التي طلب سكانها من والي بغداد الانضمام بسنجقیتهم إلى بغداد بدلاً من البقاء تحت حکم علي باشا، فأرسل درویش علی باشا جیشا لیستولی على المنطقة المحتلة لتغدو تابعة لولاية بغداد، وند وقعت احداث تاريخیة مشابهة حول قلعة «الزکیة».

كان الوضع الذي خلقته معاهدة زهاب كافیاً لاشعال فتیل النزاع الاقليمي - العثماني بين قوات والي بغداد من طرف، وقوات علي باشا افراسیاب من طرف اخر . الا ان كفة الحسراع رجحت لصالح بغداد، وبذلت تتفاهم الاسباب غير المباشرة التي تساند منها ازعاج الدولة العثمانية من العلاقات والروابط التي كان يمتلكها علي باشا افراسیاب الذي كانت وفاته ومجيء ولده حسين باشا عام ١٦٥٠ حالة مناسبة لانقطاع الاوامر العثمانية - الافراسیابية، وبداية رجوع النفوذ العثماني - الاداري المباشر على ولاية البصرة.

ولتكن نثیفَ

---

\* Cf. J. C. Hurewitz, *Diplomacy in the Near and Middle East*, London, 1958, Vol I, pp. 21-30.

وراجیم اراء المؤرخین فسون هامر بور جشتال ولونکریک وستانفسورد شو وغيرهم

لقد اصدر الباب العالي فرماناً عام ١٦٦٤ م بتولي مرتضى باشا قيادة الحملة نحو البصرة، اذ استطاع دخولها فاستقبلته اهاليها استقبالاً رائعاً، فقضى على الافراسيابيين وعلى قواتهم السياسية والاقتصادية منصباً احمد بك عم حسين باشا افراسياب حاكماً على البصرة، فرجع حسين باشا افراسياب فاستقبل بحرارة، وساعت العلاقات السياسية بينه وبين والي الاحساء الذي كان وراء الخلافات الاسرية التي دبت عند الافراسيابيين، ونتيجة للمضاعفات الاقليمية والمشاكل والتوترات قاد حسين باشا افراسياب حملة عسكرية مباغطة على الاحساء وضمها الى امارته عام ١٦٦٤ م.

كانت تلك الاحداث كافية لكي يصدر الباب العالي فرماناته بتجهيز حملة اشترك فيها ولاة ديار بكر والموصل والرقة وشهر زور ضد اماراة افراسياب وذلك في عام ١٦٦٥ م فبلغ عدد المقاتلين خمسين الف مقاتل، قبل التحرك، كتب قائد الحملة ابراهيم باشا كتاباً الى حسين باشا افراسياب يطلب منه الاستسلام، فابى وتحصن في القرنة، ولم يستسلم، وصمدت قواته في قلعتها واستبسلت امام هجمات الجيش العثماني الذي كان يحارب في بيئه صعبة. وبدأ حسين باشا يشن هجمات مباغطة وسريعة في البر على القوات المسلحة، وفي النهر على العوامات والسفن التجارية، وانقسمت البصرة على نفسها بين الطرفين.

كان حسين باشا يتلقى مساعدات من الحويزة، اذ ناصره عدد من شيوخ العرب الناقمين على الحكم العثماني، ومنهم شيخوخ المنتفك... ولم يستطع الجيش العثماني تحقيق اي نصر على حسين باشا مدي ثلاثة أشهر، وبدأ الاستياء يدب فيهم، نتيجة للأوضاع المزرية التي عاشها، فعقدت اتفاقية عاجلة بين الطرفين ذات شروط بسيطة منها، بقاء حكومة افراسياب في البصرة، وشرط انتقال الحكم الى يحيى بن حسين باشا وأن يرفع حسين باشا الى حكم الاحساء، وترجع الغنائم الى السكان، وتدفع الضرائب (الجريايا السنوية) حالاً الى الخزينة العثمانية. فبدأت القوات العثمانية بالانسحاب الى بغداد، وسار يحيى افراسياب الى اسطنبول وقد اتفق فيها على خلع حسين باشا وتنصيب ولده يحيى باشا على البصرة.